سلسلة الرسائل (١٦)

مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٣هـ

صبر طالبة العلم الشرعي

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ
مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد

فنذكر أنفسنا إن شاء الله تعالى بأنواع من الصبر، تحتاج إليه طالبة العلم الشرعي، فإن **الصبر على ثلاثة أنواع**: صبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وصبر عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وصبر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ.

وإن من أجَلِّ أنواع الصبر: الصبر على طلب العلم الشرعي وتحصيله، فقد بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضل العلم وحث عليه، وأثنى على أهله وطلابه، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١]. ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨]. ويقول سبحانه لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]. وهذا دليل على شرف العلم وفضله إذ أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه أن يطلب الزيادة من العلم الشرعي، ولم يأمره بطلب المزيد من أمور الدنيا وحطامها أو من أمور أخرى.

وقد فضل الله عَزَّوَجَلَّ الكلب المعلم على الكلب غير المعلم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾ [المائدة: ٤]. فأباح الله صيد الكلب المعلَّمِ، ولم يبح أكل صيد الكلب غير المعَلَّمِ، وهذا دليل على شرف العلم وفضله.

وصال الهدهد بحجته على نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: ٢٢].

هذه الأدلة تدل على شرف العلم وفضله، ونستفيد منها الحث على الاهتمام بطلب العلم والصبر عليه، نسأل الله أن يرزقنا الصبر على طلب العلم، وأن يوفقنا لكلِّ خير.

وإنَّما تحتاج إليه طالبة العلم من الصبر:

- الصبر على تحقيق الإخلاص، قال سبحانه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]. وقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر: ١١]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: ١٤-١٥]. وعن أبي هريرة عن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: **«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»** رواه مسلم (٢٩٨٥).

والإخلاص عزيز؛ لأن النية تتقلَّب، ويشوبها إرادات فاسدة، فيخسر الإنسان جهده في طلب العلم وسعيه، ويعود عليه وبالًا ونكالًا وعقوبة، والعياذ بالله.

فأول من تسعر بهم النار ثلاثة كما روى مسلم (١٩٠٥)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

«فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ » يذكِّره الله بنعمه وأنه مات على الشهادة في الظاهر، وكأن هؤلاء الثلاثة ينسون ماذا كانوا يفعلونه؛ لهول الأمر وشدته، فإنهم على رؤوس الأشهاد في عرصات يوم القيامة، يومٌ عظيمٌ يجمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأولين والآخرين فيه، فيسألهم الله سبحانه، وكأنه لشدة الأمر ينسون؛ فلهذا يعرِّفُهُم الله نعمه.

«قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ» يُكذَّب أمام الأولين والآخرين، وهذه غاية الفضيحة، نسأل الله العافية.

«ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ» ليس على جهة أخرى، ولكن على وجهه؛ زيادة في العقوبة، ثم يجر إلى النار، أعاذنا الله وإياكن من النار.

ويسأل الآخر وهو طالب العلم «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ » أي: يذكره بنعمه.

«قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ» يذكر ثلاثة أشياء، «وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ» خاص بعد عام؛ لأنه يدخل تحت تعلمت العلم، أو أنه ذكر قراءة القرآن؛ لأن من يهتم بطلب العلم والتعليم قد يشغل عن قراءة القرآن، فلهذا يقول: «تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ».

«ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ» هذه نتيجة طلب العلم لغير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ» أي: من أنواع الأموال.

هذا الحديث فيه التحذير من الرياء في الأعمال الصالحة، وفيه أن هؤلاء الثلاثة أول من تسعر بهم النار قبل المشركين الذين يعبدون الأصنام والأشجار ويدعون غير الله، وإليه يشير الشاعر بقوله:

وعـــالم بعلمـــــه لم يعملنْ ❁❁❁ معذَّب من قبل عُبَّاد الوثنْ

والنّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول: «مَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ» رواه مسلم (٢٩٨٧) عن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وهذا كالحديث السابق فيه خزي وفضيحة من لم يخلص عمله لله يوم القيامة.

فلا بد من الصبر على تحقيق الإخلاص، لابد من مجاهدة أنفسنا، إن أردنا لأنفسنا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

من أخلصت في طلبها العلم، جعل الله لها النور، ورزقها البصيرة والفهم، ونفع بها الأمة، الشيخ ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ لما بلغه انتشار دعوة الوالد الشيخ مقبل رَحِمَهُٱللَّهُ في اليمن وفي غير اليمن، قال: هذه ثمرة الإخلاص.

الإخلاص من أسباب صفاء القلب، وصفاء السريرة، ومن وجدت في قلبها أشياء من الأمراض: كالحسد، والعداوة، والبغضاء، والغل، والحقد، هذا قد يكون سببه فقد الإخلاص، فإن النّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول: «ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ.. » رواه الإمام أحمد (٣٥/٤٦٧)، عَنْ زيد بن ثابت، وهو في «الصحيح المسند» (٣٥١).

هذا الحديث فيه الحث على صفاء السريرة، وأن هذه الصفات الثلاث: الإخلاص، ومناصحة من ولاه الله عَزَّوَجَلَّ، ولزوم جماعة المسلمين من أسباب صفاء السريرة، فلنحرص على صفاء سرائرنا قبل أن نقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩].

الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإخلاصه يقول: «وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ أَعْلَمُهُ تَعَلَّمُهُ النَّاسُ أُوجَرُ عَلَيْهِ، وَلا يَحْمَدُونِي»، وقال: لَوَدِدْتُ أَنَّ الْخَلْقَ تَعْلَمُهُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ أَبَدًا. رواه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي ومناقبه»(٦٨).

الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمنى أن الناس يتعلمون منه العلم الذي استفاده، من غير أن ينسب إليه مِنْهُ شَيْءٌ، من غير أن يقال: قال الشافعي، وهذا دليل على إخلاصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعدم محبته للشهرة.

فما أحوجنا أن نحقق الإخلاص لله! وأن نصبر على تحقيق الإخلاص، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا.

هشام بن أبي عبدالله الدستوائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: وَاللهِ مَا أَسْتَطِيْعُ أَنْ أَقُوْلَ: إِنِّي ذَهَبتُ يَوْمًا قَطُّ أَطْلُبُ الحَدِيْثَ، أُرِيْدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال الذهبي عقِبَهُ: قُلْتُ: وَاللهِ، وَلا أَنَا (١).

---

(١) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ترجمة هشام بن أبي عبد الله الدستوائي.

(٢) ونص القصة: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي،

فالنية الصادقة ليس من السهل الاتصاف بها واستحضارها، بحيث لا نريد بذلك العمل إلا وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

سمعت والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الله المستعان، قد نجلس للدرس ولا نستحضر النية.

من أنواع الصبر الذي تحتاج إليه طالبة العلم: الصبر على تحصيل العلم وبذل الجهد فيه، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

ونبي الله موسى رحل إلى نبي الله الخضر عليهما الصلاة والسلام من أجل طلب المزيد من العلم، لا من أجل التعلم فحسب، بل طلب الزيادة، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف]، صبر نبي الله موسى على متاعب ومشاق السفر؛ لأجل الزيادة في طلب العلم، وهذا دليل على أهمية الصبر في تحصيل العلم النافع، ومن لم تصبر على تحصيل العلم أنَّى لها أن تدرك العلم وأن تناله!

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ❁❁❁ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

(لا تَحْسَبِ) أي: لا تظن. (الْمَجْدَ) أي: الشرف والكرم، لا يحسب أحد أنه سيصل إلى العلم كأنه يأكل لقمة سائغة، لا يحصل على العلم إلا بصبر وكَدٍّ وجد واجتهاد، اعط العلم كلك يعطك بعضه.

والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سمعته يقول: يا أبنائي: لو كان العلمُ يُسْقَى في كأسٍ لأسقيتُكُموه، ولكن لا يُتَحصَّلُ عليه إلا بحكِّ الرُّكب على الحَصير.

يعني: صبر وسهر وتحمل المتاعب والمشاق، لا بد من هذا، وكان والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحفز الطلاب ويصبرهم؛ لأنه يعلم بأن طالب العلم وخاصة الغريب في حاجة شديدة إلى الصبر من نواحٍ شتى، فهو في غربة والغربة لها مرارة، بعيد عن بلده، بعيد عن أهله وأولاده، قليل ذات اليد، والعلم يحتاج إلى صبر وفراغ ذهن، فكان بين الحين والآخر يصبِّر طلاب العلم؛ لأن التذكير يثبِّت، التذكير من أسباب الثبات وعلو الهمة.

ومن ذلك قصة المحمدين:

فقد جمعت الرحلة بين المحمدين محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن هارون الروياني، أربعة من كبار المحدثين، فرحلوا لطلب العلم، ثم أرملوا وكأن الرحلة طالت فأرملوا -أي: نفد ما عندهم من الزاد، ولم يبق لهم قوت- حتى خَشُوا الضرر على أنفسهم من شدة الجوع، فرأوا أنه قد حلت لهم المسألة، مع أن أصحاب الحديث في غاية العفة والنزاهة، فَاتَّفَقَ رأيُهُم عَلَى أَنْ يَسْتَهِمُوا وَيضربُوا القُرْعَة، فَمَنْ خَرجتْ عَلَيْهِ القُرعَةُ سَأَلَ لهم الطَّعَام، فَخَرَجت القرعة

عَلَى ابْنِ خُزَيْمَة، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: أَمْهِلوني حَتَّى أُصَلِّي صَلاة الخِيرَة، يعني: صلاة الاستخارة، فبينما هو يصلي إذا بإنسان يدق الباب، ففُتح الباب، فإذا بإنسان يقول: إن والي مصر كان قائلًا بالأمس -أي: نائمًا وقت القيلولة-فوجد خيالًا يقول: إن المحامد قد طووا كشحهم من الجوع، وقد أرسل إليكم بهذه، وكأنه قد عرف الأسماء من خلال رؤيا والي مصر؛ لأنه قال: أيكم محمد بن نصر؟ قالوا: هو ذا. فدفع إليه صرة فيها خمسون دينارًا، قال: أيكم محمد بن جرير؟ قالوا: هو ذا. فدفع إليه صرة فيها خمسون دينارًا، قال: أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ قالوا: هو ذا يصلي، فقال: أيكم محمد بن هارون؟ قالوا: هو ذا. فدفع إليه صرة فيها خمسون دينارًا، فلما سلم ابن خزيمة من صلاته أعطاه صرة فيها خمسون دينارًا، وقال: إن الوالي أقسم عليكم أنه إذا نفد ما عندكم أن ترسلوا إليه(٢).

---

(٢) ونص القصة: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الروياني بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضر بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال: لأصحابه أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة، قَالَ: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع وخصي من قبل والي مصر يدق الباب، ففتحوا الباب فنزل عن دابته، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو هذا. فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثم قَالَ: أيكم محمد بن جرير؟ فقالوا: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثم قَالَ: أيكم محمد بن هارون؟ فقالوا: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثم قَالَ: أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هو ذا يصلي، فلما فرغ دفع إليه الصرة، وفيها خمسون دينارا، ثم قَالَ: إن الأمير كان قائلا بالأمس فرأى في المنام خيالا قَالَ: إن المحامد طووا كشحهم جياعا، فأنفذ إليكم هذه الصرار، وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إلي أمدكم. المرجع: «تاريخ بغداد» (٢/٥٤٨)، و«تاريخ دمشق» (٥٢/١٩٣)، و«سير أعلام النبلاء»(١٤/٢٧٠).

هذه كرامة عظيمة من الله عَزَّوَجَلَّ، فهؤلاء قد بلغ بهم الجوع إلى حدٍّ لا يطاق، وصانهم الله عن سؤال الناس، فإن سؤال الناس ذلة وإهانة، وهذه كانت رحلات طلبة العلم ورحلات المحدثين في طلب العلم، وفناء أعمارهم في تحصيل العلم النافع.

الكسائي رأى أنه لم يتمكن في علم النحو، وإذا أراد الله بعبد خيرًا هيَّأ له أسبابه، فهيأ له أن رأى نملة تحمل طعامًا وتصعد به إلى الجدار، وكلما صعدت سقطت، وبعد محاولات صعدت بالطعام، فقال: هذه نملة تصبر، فثابر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وطلب العلم حتى صار مرجعًا في علم النحو، هذا ذكره الشيخ ابن عثيمين عن شيخه السعدي رحمهما الله(٣).

فعلى كل حال، كلُّ من سار على الدرب وصل.

وما أحسن ما قاله ابن هشامٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمن يصطبر للْعلم يظفــر بنيله ❁❁❁ وَمن يخْطب الْحَسْنَاء يصبر على الْبَذْل

وَمن لم يذل النَّفس في طلب العلى ❁❁❁ يَسِيرًا يَعش دهــرًا طَويلا أَخــا ذُل

الإمام الشافعي يقول في «الرسالة» (١٩): والناس في العلم طبقات، موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به. فحق على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارض دون طَلَبِه.

---

(٣)قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «العلم»(٤٧): وقد حدثني شيخنا المثابر عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ذكر عن الكسائي إمام أهل الكوفة في النحو أنه طلب النحو فلم يتمكن، وفي يوم من الأيام وجد نملة تحمل طعامًا لها وتصعد به إلى الجدار وكلما صعدت سقطت، ولكنها ثابرت حتى تخلصت من هذه العقبة وصعدت الجدار، فقال الكسائي: هذه النملة ثابرت حتى وصلت الغاية، فثابر حتى صار إمامًا في النحو.

وقال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢٩٩): أمَّا سعادةُ العلم فلا يورثُك إياها إلا بَذلُ الوسع، وصدقُ الطَّلب، وصحةُ النية. وقد أحسنَ القائلُ في ذلك:

فقُلْ لِمُرجي معالي الأمور ❁❁❁ بغيرِ اجتهادٍ رَجَوْتَ المُحالا

وهذا عكرمة مولى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يتعلم ويحفظ ويستفيد، مع أنه مشغول بالرِّقِّ. روى الدارمي في «سننه» (٥٧٢) عن عكرمة قال: كان ابن عباس يضع في رجلي الكَبْل(٤) ويعلمني القرآن و السنن. والأثر صحيح.

وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ مشغولًا بالرِّق وبالخدمة؛ لأنه عبدٌ، مملوك، ولكن البركة من الله، فلم يشغله الرِّقُّ عن العلم وحفظ القرآن، وقد نفع الله به و صار مرجعًا من المراجع، ومن كبار تلاميذ مولاه وسيده ابن عباس، وبعد وفاة ابن عباس ورِثه بعض أبناء ابن عباس، ثم باعه، فقال له: بعتَ علم أبيك، فندم وأقال بيعه (٥).

يقول عكرمة: بعتَ علم أبيك؛ لأنه استفاد من أبيه عبدالله بن عباس خيرًا كثيرًا في الحديث والفقه والتفسير.

---

(٤) الكبل: القيد.

(٥) في «الطبقات الكبرى» (٥/٢١٩): عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ رَاشِدٍ قَالَ: مَاتَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ عَبْدٌ فَاشْتَرَاهُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ بِأَرْبَعَةِ آلافِ دِينَارٍ. فَبَلَغَ ذَلِكَ عِكْرِمَةَ فَأَتَى عَلِيًّا فَقَالَ: بِعْتَنِي بِأَرْبَعَةِ آلافِ دِينَارٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ مَا خِيَرٌ لَكَ. بِعْتَ عِلْمَ أَبِيكَ بِأَرْبَعَةِ آلافِ دِينَارٍ! فَرَاحَ عَلِيٌّ إِلَى خَالِدٍ فَاسْتَقَالَهُ فَأَقَالَهُ فَأَعْتَقَهُ.

فَمَنْ صبرتْ على تحصيل العلم تظفرْ به إن شاء الله، ويعطي الله من واسع فضله العظيم، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣]. فالله يعطي ويكرم مَن صابر وصبر في تحصيل العلم النافع.

عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما توفي النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان صغيرًا -عمره عشر سنين-، ولكنه ذو نباهة وفهم وحرص على العلم، ومع دعوة النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ له: «اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» رواه الإمام أحمد (٣٠٣٢).

فعبدالله بن عباس «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا فُلَانُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ».

فَقَالَ: واعجبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَرَى؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ، وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ. فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: «كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي». رواه الدارمي في «مقدمة سننه»(٥٩٠).

فانظرن أخواتي في الله إلى صبر ابن عباس، صبر صبرًا عظيمًا على تحصيل العلم، ثم بعد زمن رأى الفتى الأنصاري منزلة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه قد أصبح أحد كبار المفتين، المعلمين، والمراجع الكبار للصحابة وغيرهم، فندِمَ وقال: «كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي».

فإياكِ إياكِ والمثبطين، فقد تقول القائلة: أنت ذاتُ زوج وأولاد فما عندك وقت لطلب العلم، ولحفظ القرآن.

أو تقول: سترهقِين نفسَكِ وتفرِّطين في الحقوق والتربية، وهذا غير صحيح، بالمجاهدة والدعاء، والهمة العالية تذْهَبُ العقبات إن شاء الله، ويسهل الطريق.

وتأتي أخرى وتقول لك مثل ما قيل لابن عباس: أتظنين الناس يحتاجون إلى علمك، الناس في غنى عن علمك، وعن منشوراتك؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله، فالحذر من المثبِّطين.

صالح بن كيسان من المحدثين يقول له الزهري، وهما يعتبران زميلين إلا أن صالح بن كيسان أكبر من الزهري بأربع سنين: هلُمَّ فلنكتب أقوال الصحابة كما نكتب حديث النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فلم يفعل، فأقبل الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ على كتابة آثار الصحابة الذين هم أفضل القرون، ولم يلتفت للتثبيط أو تأثر بتركِ زميلِه لذلك، وكتب أقوال الصحابة، فندم صالح بن كيسان (٦).

(٦)روى الفسوي رَحِمَهُ اللَّهُ في «المعرفة والتاريخ»(٦٤١): عن صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ قَالَ: كُنْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ أنا والزهري فقال لي: تعالى حتى نكتب السنن. فكتبنا كلما جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: تعال حتى نَكْتُبْ كُلَّ مَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ. قَالَ: فَكَتَبَ وَلَمْ أَكْتُبْ. قَالَ: فَأَنْجَحَ وَضَيَّعْتُ.

فلنحذر أخواتي في الله المثبِّطين.

والصبر على تحصيل العلم عبادة جليلة، وقد بوب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَابُ الحِرْصِ عَلَى الحَدِيثِ، ثم أخرج حديث (٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»**.

وأبو هريرة يلقب بحافظ الصحابة(٧)، وصبر على الجوع وعلى شظف العيش، صبر في سبيل الله، وتحمَّل المشاق والمتاعب؛ من أجل صحبة النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، والتفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

إذًا علينا أن نستعين بالله عَزَّوَجَلَّ، وأن ندعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وأن يرزقنا خُلُقَ الصبر، فالصبر شأنه عظيم في جميع جوانب الحياة والعبادة، لاسيما في طلب العلم الشرعي.

ومن أنواع الصبر: الحرص على جذْبِ علو الهمة وتحريك النفوس، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: ١٢]. وقال الله لنبيه موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما أعطاه التوراة: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ

(٧) كما قال الذهبي في «الموقظة» (٦٩): والحُفَّاظُ طبقات: في ذِرْوَتِها: أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال سبحانه لبني إسرائيل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾، وقال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وسائر الأدلة التي فيها الحث على المسارعة إلى الخير نستفيد منها الحث على الهمة العالية، ومعالجة النفوس حتى تنشط، فيصير العلم أُنْسًا لها وراحة، ويجد حلاوة لا نظير لها.

والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سمعته يقول: دارِ نفسَكَ ولو بحبة حلوى.

النفس تُدارى بأي شيء مما لا محظور فيه، مثل ما يشجَّعُ الطفل بمأكول أو بشيء ترفيهي، مما لا يخالف الشرع ولا يضيع الوقت، هذا من مداراة النفوس.

وإن من الهمة العالية الاستمرار في طلب العلم، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقِيلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ، إِلَى مَتَى تَطْلُبُ الْعِلْمَ؟ قَالَ: «حَتَّى الْمَمَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

وَقِيلَ لَهُ مَرَّةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «لَعَلَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَنْفَعُنِي لَمْ أَكْتُبْهَا بَعْدُ» رواه ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع بيان العلم وفضله» (٥٨٦-٥٨٧)

وكما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من المحبرة إلى المقبرة.

وعبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: ما زال القلم في يد أبي حتى مات. رواه الخطيب في «الكفاية» (٥٧٤).

فمن الهمة العالية أنك لا تحدثين نفسك بالتوقف في وقت من الأوقات عن طلب العلم، فما أحوجنا إلى الهمة العالية!

وإن الجليسات المفرِّطات في أوقاتهن من أسباب ضعف الهمة، فاحرصي على مجالسة النشيطات؛ لتعلو همتك، النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ**» رواه الحاكم في «المستدرك» (٣١٢) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في «الصحيح المسند» (٥١) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن أنواع الصبر الذي تحتاج إليه طالبة العلم: الصبر على الحفظ، والحفظ سلوك إلى طريق الجنة، كما قال النّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**» رواه مسلم (٢٦٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا يشمل الحفظ والمذاكرة والبحث والتلقِّي والمطالعة..

ولكنه شاقٌّ على النفس، يقول والدي رَحِمَهُ اللَّهُ: الحفظ شاق وأشق منه المحافظة على المحفوظات من النسيان.

فالحفظ يحتاج إلى صبر عظيم، ولا يكون أحدٌ طالب علم إلا بالحفظ.

العلم هو بالحفظ إذا صحِبه توفيق من الله عَزَّوَجَلَّ.

لَيْسَ الْعِلْمُ مَا حَوَاهُ الْقِمَطْرُ ❁❁❁ إِنَّمَا الْعِلْمُ مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

ومن مراتب العلم الحفظ، روى ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (٧٦١) عن سفيان الثوري: أَوَّلُ الْعِلْمِ الِاسْتِمَاعُ، ثُمَّ الْإِنْصَاتُ، ثُمَّ الْحِفْظُ، ثُمَّ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّشْرُ. وسنده صحيح.

خمس مراتب للعلم.

حفظ العلم عبادة عظيمة وسعادة، فإذا حفظت القرآن أو حفظتِ حديث النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فأنت في عبادة عظيمة، وفي طريق الجنة، وإذا حفظت وسائل العلم كعلم الحديث وعلم النحو، فأنت إن شاء الله في خير وفي طريق الجنة.

فالصبر على الحفظ ليس بالهيِّن، والمصابرة عليه، والله يمد من واسع فضله، من صبرت على الحفظ أعانها الله وأمَدَّها، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: **«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ. وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»** رواه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣) عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ.

فجاهدي واصبري في حفظ الشيء المهم وما تحتاجين إليه في طلب العلم، ربما بعضهم يحفظ أناشيدَ ومقالات لبعض الضائعين، وأنت يا طالبة العلم أحق أن تحفظي ما يقربك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن أنواع الصبر الذي تحتاج إليه طالبة العلم: الصبر على المحافظة على المحفوظات كما تقدم في كلام والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحفظ شاق وأشق منه المحافظة على المحفوظات من النسيان.

والنّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «**تَعَاهَدُوا القُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**» رواه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١) عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وإذا كان القرآن شديد التفلت مع تيسير الله حفظه فكيف بغيره!

فالمحافظة على المحفوظات يحتاج إلى صبر، لو كان مَنْ حفظ يضع مصحفه ويمشي، أو حفِظ متن كذا يضع الكتاب ويمضي، سيكون الحفَّاظُ كثيرًا، لكن الحفظ يحتاج إلى عمل دؤوب ومراجعة مستمرة وإلَّا تفلَّت.

ومن أنواع الصبر الذي تحتاج إليه طالبة العلم: الصبر على تجنب بعض المأكولات والمشروبات؛ حتى لا تضعف الحافظية وتهتز المعلومات، وهذا مثل الأشياء الحامضة: كالليمون والتفَّاح الحامض وغير الحامض، الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: التفاح يورث النسيان.

أحيانًا لا بأس به مداراةً للنفس، فقد لا يؤثِّر قطعة وفي بعض الأحيان، لكن بحذر، لو أكلتِ حبةَ تفاح وقرأت جزءًا عن ظهر قلب في اليوم الأول، في اليوم الثاني قد يسقط عليكِ بعض الكلمات وربما بعض الآيات.

فطالبة العلم تختلف عن غيرها في مأكولاتها.

وكذلك المشروبات الغازية تسبِّب النسيان، والشيء اليسير النادر لا يؤثِّر، ومن السلف من كان يحرص على المأكولات التي تقوِّي الذاكرة، الزهري كان يأكل الزبيب الأسود؛ لأنه يقوي الحفظ، وسواء الزبيب الأسود أو غيره بشكل عام يقوي الذاكرة، وهكذا العسل والزنجبيل يقويان الذاكرة من غير إكثار من الزنجبيل خاصة اليابس، يعني: يأخذ قليلًا ولا يداوم، فالزنجبيل قد يسبب الضغط؛ لأنه حار. وقد كان والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينبه أنه لا يكثر من الزنجبيل، فقد ينقلب إلى سوداء، والسوداء سبب للنسيان.

فعلى كل حال تحتاج طالبة العلم إلى صبر ومجاهدة حتى في مطعمها ومشربها.

- ومن أنواع الصبر: مذاكرة العلم عند اللقاءات، هذا يحتاج إلى صبر، عند اللقاء تندفع النفوس إلى الكلام والترفيه على النفس، فيُستغل في المذاكرة والتذكير، مع ترك شيء من الفسحة للحاضرات حتى لا يسبِّب النفور، وحياة العلم مذاكرته، كما قال جماعة من أهل العلم، وما تكرر تقرر.

يقول عبدالرحمن بن مهدي: كان الرجل من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم فهو يوم غنيمته سأله وتعلم منه، وإذا لقي من هو دونه في العلم علمه وتواضع له، وإذا لقي من هو مثله في العلم ذاكره ودارسه. أخرجه أحمد بن أبي خيثمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخه» (١/١٠٣٦)، والأثر صحيح.

- ومن أنواع الصبر: الصبر على العمل بالعلم، وهذا هو الغاية من تعلم العلم؛ فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر.

وهذا شيء عظيم، فقد يسهل طلب العلم ولكن العمل به القليل من يعمل، وربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. والأدلة كثيرة في العمل بالعلم وآثار السلف ومسابقتهم إلى العمل الصالح كثيرة أيضًا. ونقتصر على مثال واحد وهو ما ثبت عن ابن عُمَرَ، قَالَ: إِنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا يَرَوْنَ الرُّؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُصُّونَهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَأَنَا غُلَامٌ حَدِيثُ السِّنِّ، وَبَيْتِي المَسْجِدُ قَبْلَ أَنْ أَنْكِحَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ لَرَأَيْتَ مِثْلَ مَا يَرَى هَؤُلاَءِ، فَلَمَّا اضْطَجَعْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ فِيَّ خَيْرًا فَأَرِنِي رُؤْيَا، فَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ جَاءَنِي مَلَكَانِ، فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِقْمَعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، يُقْبِلاَنِ بِي إِلَى جَهَنَّمَ، وَأَنَا بَيْنَهُمَا أَدْعُو اللَّهَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهَنَّمَ، ثُمَّ أُرَانِي لَقِيَنِي مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِقْمَعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، فَقَالَ: لَنْ تُرَاعَ، نِعْمَ الرَّجُلُ أَنْتَ، لَوْ كُنْتَ تُكْثِرُ الصَّلاَةَ. فَانْطَلَقُوا بِي حَتَّى وَقَفُوا بِي عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البِئْرِ، لَهُ قُرُونٌ كَقَرْنِ البِئْرِ، بَيْنَ كُلِّ قَرْنَيْنِ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِقْمَعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَأَرَى فِيهَا رِجَالًا مُعَلَّقِينَ بِالسَّلاَسِلِ، رُءُوسُهُمْ أَسْفَلَهُمْ، عَرَفْتُ فِيهَا رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَانْصَرَفُوا بِي عَنْ ذَاتِ اليَمِينِ. فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**» قَالَ نَافِعٌ: «فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْثِرُ الصَّلاَةَ» رواه البخاري (٧٠٢٨-٧٠٢٩)، ومسلم (٢٤٧٩).

وقوله: «**لَنْ تُرَاعَ**» أي: بشَّره الملك؛ لأنه كان في رُعْبٍ شديد.

«فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْثِرُ الصَّلاةَ» يعني: أدركته هداية الله في الحرص على صلاة الليل بسبب رؤيا منامية، فحافظَ على قيام الليل، وهذه طريقة السلف، الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يطبقون ما يتعلمونه كما يطبق المريض العاقل كلام الطبيب الناصح.

ووالدي الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: والله إننا نخشى على أنفسنا أن الناس يدخلون الجنة، ونحن عندنا الأبواب، أو قد ذُهِب بنا إلى مكان آخر والعياذ بالله، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[البقرة].

ومن أنواع الصبر: الصبر على نشر العلم، إذا استفدتِ وتعلَّمتِ فانشريه، ولا تقصريه على نفسك؛ لينفع الله به، والهداية بيد الله عَزَّوَجَلَّ، النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخاري (٣٤٦١)عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ» رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والحديث في «الصحيح المسند» (١١٦١) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

فلتحرص طالبة العلم على نشر العلم ولو كان يسيرًا.

وإن من أسباب نسيان العلم كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عدم نشره وتعليمه؛ فَإِن من خزن علمَه وَلم ينشره وَلم يُعلمهُ ابتلاه الله بنسيانه وذهابه مِنْهُ، جَزَاء من جنس عمله، وَهَذَا أَمر يشْهد بِهِ الْحسُّ والوجود.

ومن أنواع الصبر: الصبر على الثبات على طلب العلم وعدم الانقطاع عنه حتى الممات، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]. ويقول النّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ» رواه مسلم (٢٨١٨)عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ويقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، وَإِنْ قَلَّ». رواه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٢) واللفظ له.

أما من تأخذ فترة في طلب العلم ثم تنقطع فهذه لن تنجح، وهذا حالُ كثير من الناس يطلب العلم ثم ينقطع، هذا يذهب إلى حزبية، وهذا إلى أعمال دنيوية، وهذا يُشغل؛ ولهذا والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان طلابه في الآونة الأخيرة ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فقال: لو صفا من هؤلاء عشرة لكان خيرًا كثيرًا.

وفي هذا المعنى ما جاء عن إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي: كَثُرَ مَنْ يَطْلُبُ الْحَدِيثَ فِي زَمَنِ الْأَعْمَشِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَا تَرَى مَا أَكْثَرُهُمْ؟ قَالَ: لَا،

تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَتِهِمْ، ثُلُثُهُمْ يَمُوتُونَ، وَثُلُثُهُمْ يَلْحَقُونَ بِالْأَعْمَالِ، وَثُلُثُهُمْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ يُفْلِحُ وَاحِدٌ.

رواه الخطيب في «جامعه» (١/ ٩٦) بسند حسن.

ومن ثبت نبت، وقليل دائم خير من كثير منقطع.

- ومن أنواع الصبر: الصبر على تقييد الفوائد. فالعلم بدون تقييد يضيع.

قال الشاعر:

العلم صيد والكتابة قيـــده ❁❁❁ قيد صيودك بالحبال الواثقه

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ❁❁❁ وتتركها بين الخلائق طالقه

- ومن أنواع الصبر: الصبر على صيانة العلم.

فالعلم يحتاج على صيانة من المعاصي، والأخلاق السيئة، ومن صانت نفسَها صانها علمُها، ومن لم تصن نفسَها لم يصنها علمُها، الجزاء من جنس العمل.

وقد كان والدي الشيخ مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحذِّر أشد الحذر من إهانة العلم والدعوة، ومن كلامه: يجب أن نتقي الله في الدعوة ولا نعرضها للإهانة.

ويذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأبيات التي قالها علي بن عبد العزيز الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، وفي آخرها:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ❁❁❁ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَـــانَ وَدَنَّسُـــوا ❁❁❁ مُحَيَّـاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّـــى تَجَهَّمَا

أسأل الله الكريم أن ييسر لنا ولكن سبل العلم النافع، وأن يسخر لنا الطريق، وأن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، والحمد لله رب العالمين.

تم إلقاء هذه المحاضرة ولله الحمد والمنة.

ليلة الأربعاء الموافق ٢٨/ من شهر جمادى الآخرة/ لعام ١٤٤٣ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.